تخطيط البلدان

يسأل كثيرون قرّاء المقتطف مرّةً بعد أخرى عن اسم المكتشف الاول لهذا الامر او ذاك والمستنبط الاول لهذه الآلة او تلك والواضع الاول لهذا العلم او ذاك ونحو ذلك من المسائل الدالة على رغبة السائل في البحث والتنقيب فجيبهم بما يحضرنا او بما نقف عليه في كتب القوم. وقد سُئلنا الآن عن واضع علم الجغرافيا المعروف بتخطيط البلدان. وكنا قد عثرنا على صورة الخريطة التي رسمها الشريف الادريسي منذ نحو ٨٠٠ سنة بأمر الملك روجار صاحب صقلية فرأينا ان نرسمها ونضيف اليها رسم الخريطة التي وضعها بطليموس قبل ذلك ونجمع مقالة وجيزة في هذا الموضوع نذكر فيها تاريخ هذا العلم منذ نشأته الى ان بلغ العرب وانتقل منهم الى الافرنج

اول صورة يتصورها المرء للارض انها جسم مسطح مستدير. كذا كنا نتصورها ونحن اطفال وكذا كان الناس يتصوّرونها في طفولية نوع الانسان وكانوا يحسبون البحر يحيط بها من كل ناحية. واول مَن ركب البحر وبلغ الاقطار الشاسعة واخبر غيره بما رأى فيها ووصلت اخباره الينا الفينيقيون اسلاف السوريين تلك الامة التي كانت لا يقرُّ لها قرار الاّ بالسفر وركوب الاخطار مثل ابنائها في هذا العصر فانك تراهم منتشرين في كل الممالك والبلدان من اليابان شرقاً الى اقاصي اميركا غرباً ومن بلاد الروس شمالاً الى بلاد الزولو جنوباً فلا تخلو قارّة ولا مملكة منهم. ويظهر مما اوردهُ هوميروس في اشعاره انهم كانوا قد جابوا البحر الاسود وقطعوا البحر المتوسط ودخلوا الاوقيانوس الغربي (الاتلنتيكي) واستوطنوا اسبانيا الصغرى في القرن الثاني عشر قبل المسيح وبلاد اليونان في القرن الحادي عشر وقرطاجنة في القرن التاسع. ويقال انهم طافوا حول افريقية كلها فساروا في البحر الاحمر جنوباً ودارُوا حول رأس الرجاء الصالح من جهة الجنوب وظلوا سائرين غرباً وشمالاً الى ان دخلوا بوغاز جبل طارق وقطعوا البحر المتوسط وعادوا الى مصر. وكان ذلك في القرن السابع قبل المسيح في عهد الملك نخو من ملوك الدولة السادسة والعشرين من الدول المصرية. والدليل على صحة ما تقدَّم انهم قطعوا البحر حيث صارت الشمس عن يمينهم وهم متجهون غرباً ولا يكون ذلك الاّ جنوبي افريقية. وقد استبعد هيرودوتس هذا الامر ولكنهُ صحيح وهو دليل قاطع على صدق الخبر

وفي القرن السابع والسادس قبل المسيح زادت معارف الناس عن شكل الارض واتساعها وبلغ تجارة قرطاجنة الفينيقيون الجزائر الانكليزية في اقصى الشمال ووصفوها. ويقال ان

خط الاستواء فاستدلّ به على مقدار هذا البعد اي على عروض الاماكن وكان ذلك في عهد الاسكندر كما تقدّم

وبنى الاسكندر مدينة الاسكندرية في مصر لكي تكون مقرّ تجارة الشرق والمغرب فجعلها خلفاؤه البطالسة دارًا للعلم والعلماء ايضًا وجمعوا فيها كل ما وصلت يدهم اليه من كتب العلم . وقام في ذلك الحين رجل اسمه اراتوستس كان كتبيًّا في مكتبة الاسكندرية وعالمًا كبيرًا وبه ابتدأ علم الجغرافية حقيقة . وكان الناس الى ذلك الحين يقيسون الابعاد بين الاماكن بالمراحل اي بالايام التي تقضى في قطعها ولا يخفى ما يقع في ذلك من الخطإ فقال انه يتعذّر رسم خريطة صحيحة ما لم تعلم مساحة سطح الارض ولا تعلم المساحة ما لم يعلم محيط الارض وهذا يعلم اذا قيست درجات قوس من الدوائر وقيس طولها ثم تعلم الابعاد بعد ذلك بقياس الدرجات. واهتمّ بهذا الامر فوجد ان نور الشمس يقع عموديًّا في اسوان وقت الظهر في الانقلاب الصيفي لانه اذا دخل بئرًا عمودية حيثئذٍ انار قاعها كلهُ ولم يلقِ فيه ظلاًّ وفي ذلك اليوم عينه يكون نورها مائلاً في الاسكندرية سبع درجات و١٢ دقيقة فالبعد بين الاسكندرية واسوان سبع درجات و١٢ دقيقة اي جزء من خمسين جزءًا من محيط الارض وطول هذا الخط معروف فعُرف منهُ محيط الارض . وكانت مكتبة الاسكندرية حاوية كل ما كتبهُ القدماء سبقوهُ في الجغرافية فجمع منها كتابًا كبيرًا وضع خريطة للارض كانت اكمل ما صنع الى ذلك الحين واصح من خريطة بطليموس الآتي ذكرها من بعض الوجوه

ونشأ بعدهُ هبّرخس الفلكي الشهير وهو اول من بدأ بقسمة سطح الارض الى دوائر وهميّة تمرّ حولها من قطبة الى قطبة وتقطع خط الاستواء على ابعاد متساوية وهي خطوط الطول وبدوائر اخرى موازية لخط الاستواء ترسم على ابعاد متساوية وتصغر رويدًا رويدًا الى ان تبلغ القطبتين وهي خطوط العرض

وعني الرومان برسم الخرائط لسلطتهم الشاسعة لكنهم كانوا يعتنون غالبًا برسم الطرق الموصلة بين المدن المختلفة وما تمرّ به من الجبال والاودية والينابيع ارشادًا لجنودهم في غزواتهم ولقوافل التجار في رحلاتهم

وفي القرن الثاني قبل المسيح قام مارين الصوري واطّلع على كل ما كتبهُ السلف في علم الجغرافيا وجمع اخبارًا كثيرة نقلها عن التجارة واهل الرحلات والّف كتابًا كبيرًا في الجغرافيا اضاف اليه كثيرًا من الخرائط رسم فيها خطوط الطول والعرض حتى تظهر مواقع المدن والاماكن الشهيرة كما هي . وعلى هذا الكتاب كان اعتماد بطليموس في جغرافيته الشهيرة كما

اعترف هو نفسهُ. فان كان التاريخ قد يخل علينا بذكر الخرائط الاولى التي صنعها السوريون للبلدان الشاسعة التي اكتشفوها في رحلاتهم فهو لم يخل بذكر هذا الكتاب الجغرافي الكبير الذي الفهُ مارين الصوري وعليه كان اعتماد بطليموس في جغرافيته. ويقال ان غاية ما فعلهُ بطليموس تنقيح هذا الكتاب وقد اخطأ في هذا التنقيح قدر ما اصاب. وبطليموس هذا واسمهُ كلوديوس بطليموس من يونانيي مصر نشأ في الاسكندرية وكان حيًّا فيها سنة ١٦١ للمسيح واطلع على كتب من تقدَّمهُ واستخلص منها ومن مبتكراته العلمية كتابين كبيرين ارتشد

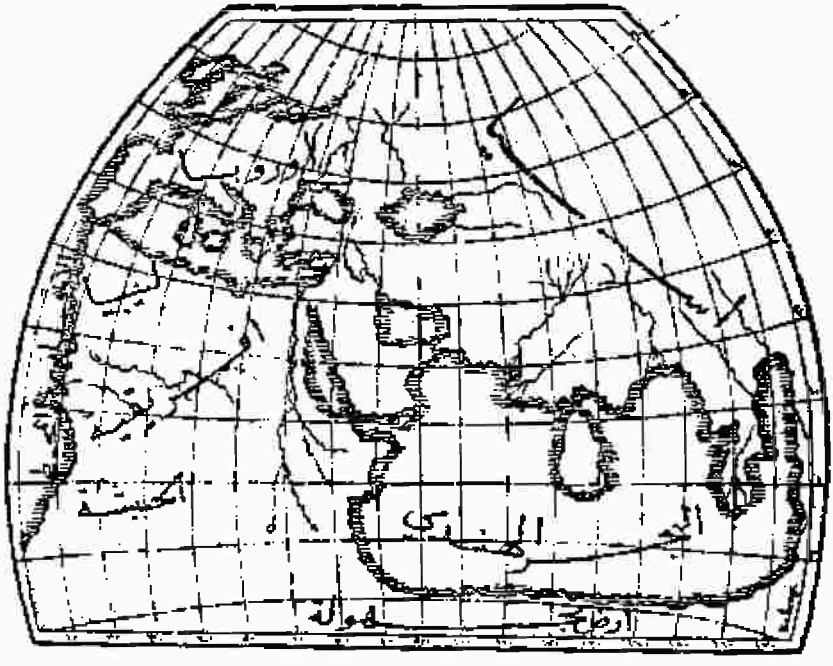

الشكل الاول. خريطة بطليموس

بهما الناس ونسجوا على منوالها الى ان بزغت شمس العلوم الحديثة منذ قرنين او ثلاثة وهما كتاب الجغرافيا المار ذكرهُ وكتاب المجسطي في الفلك. وكتاب الجغرافيا هذا في ثمانية اجزاء ذكر فيها كل الاماكن المعروفة ووصفها وصفًا موجزًا وذكر اطوالها وعروضها وقد حسب الطول من جزائر كناري (الجزائر الخالدات) لحاسبًا انها ابعد المعمور غربًا فكهُ حسب انها على درجتين ونصف غربي رأس سنت فنست بافريقية والحال انها على تسع درجات وثلث منهُ. وضع ستًّا وعشرين خريطة للبلدان المختلفة وخريطة واحدة تجمعها كلها وهي المرسومة في الشكل الاول هنا

وخريطة بطليموس على ما تظهرها ليست افضل من خريطة رانوستس ولا تمتاز عليها الا بخطوط الطول والعرض ورسمها مخيفة لكي تظهر بها كروية الارض وقد وصل كتابه اليك سليماً ووجدت نسخة يونانية منه كتبت منذ نحو سبع مئة سنة وهي الآن في دير الروم بجبل آثوس

الشكل الاول بطليموس صاحب الجغرافيا والخريطة

وقد رسم الاقدمون بطليموس بصورة شيخ جميل القدر متكئ على صفيحة تحيط بها ابراج السماء كما ترى في الشكل الثاني وقد نقل هذه الصورة الدكتور دالي رئيس جمعية الجغرافية الاميركية فنقلتها عنه

واطبق ليل الجهل بعد بطليموس ولكن بقيت كتبهُ تنير حنادس الظلم الى ان قويت شوكة العرب واستعانوا بالسوريين على ترجمة كتب اليونان واهتموا بعلم الجغرافية فنجحوا على منوال بطليموس واضافوا الى معارف اليونان والرومان ما عرفوهُ باسفارهم الكثيرة في آسيا وافريقية والاوقيانوس الهندي

قال الملك المؤيد ابو الفدا صاحب حماه في مقدمة كتابهِ تقويم البلدان " اني لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الارض من الجبال والبحار وغيرها لم اجد فيها كتاباً موفياً بغرضي فمن الكتب التي وقفت عليها في هذا الفن كتاب ابن حوقل وهو كتاب مطوّل ذكر فيهِ صفات البلاد مستوفياً غير انهُ لم يضبط الاسماء وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض فصار غالب ما ذكرهُ مجهول الاسم والبقعة ومع جهل ذلك لا تحصل فائدة تامّة . وكتاب الشريف الادريسي في الممالك والمسالك وكتاب ابن خرداذبه وغيرهما . وجميعهم حذوا حذو ابن حوقل في عدم التعرّض الى تحقيق الاسماء والاطوال والعروض . اما الزيجات والكتب المؤلفة في الاطوال والعروض فانها عريّة عن تحقيق الاسماء وضبطها مثل كتاب الانساب للسمعاني والمشترك لياقوت الحموي وكتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الانتساب وكتاب الفيصل وكلاهما لابي المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي فانها اشتملت على ضبط الاسماء وتحقيقها من غير تعرّض الى الاطوال والعروض . ومع الجهل بالاطوال والعروض يجهل معظم ذلك البلد . وقفنا على ذلك وتأمّلناهُ جمعنا في هذا المختصر ما تفرّق من الكتب المذكورة من غير ان ندّعي الاحاطة بجميع البلاد او بغالبها فان ذلك امرٌ لا مطمع في الاحاطة بهِ فان جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لا تشتمل الاَّ على القليل الى الغاية "

ولم يحُط ابو الفدا بكل ما كتبهُ جغرافيو العرب قبلهُ ولم يقتصر الذين جاؤوا بعدهُ على ما عُرف في ايامهِ ولذلك فني كتبهم اكثر مما ذكر في كتابهِ . وقد وُفّي هذا الموضوع حقهُ في مقالتين مسهبتين درجت الاولى منهما في المجلد السادس من المقتطف والثانية في المجلد الثالث عشر منهُ

اما الخرائط الجغرافية التي كان العرب يرسمونها فاقتفوا بها اولاً خطوات الرومان اي كانوا يرسمون المدن والطرق التي يسايرها اليها . ثم دعا الملك روجر صاحب صقلية الشريف الادريسي في القرن الثاني عشر للميلاد فالّف لهُ كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق شرح بهِ كرةً ارضية صنعها من الفضة وصُنعت خريطة عن هذه الكرة وهي المرسومة في الشكل الثالث وجعل الجنوب فيها الى فوق والشمال الى اسفل على ضد الخرائط المعروفة الآن

والشريف الادريسي من الادارسة اصحاب المغرب الاقصى ولد بسبتة تجاه جبل طارق سنة ٤٨١ للهجرة (١٠٨٩ للمسيح) ودرس بقرطبة من مدن الاندلس وطاف في اسبانيا وافريقية واسيا الصغرى ودعاه الملك روجر الثاني صاحب صقلية اليه فلما بلغه عن علمه وفضله واجزل صلاته وعهد اليه في تأليف جغرافية مشهية يصف بها بلدان العمور بابا وصفه على المشاهدة فبعث بالرواد الى الاقطار المختلفة ليجربوها ويحملوا اليه اوصافها وقياس اطوالها

الشكل الثالث - خريطة الشريف الادريسي

واعراضها ثم جمع ما كتبوه ولخصه في كتابه نزهة المشتاق . والظاهر انه غير الكتاب الذي ذكره ابو الفدا . ولم يتم تأليف نزهة المشتاق الا سنة ١١٥٤ ومر توسع جغرافية الفت الى ذلك الحين . ولخص هذا الكتاب وطبع في كمبردن وقد طبع جانب منه في ليدن سنة ١٨٦٦ اما الكتاب كله فلم يطبع حتى الآن . وسيأتي الكلام على قيمة تاريخ هذا العلم